



حلب وقلعتها

قلعة الذهباء

هي قلعة شامخة الذرى اكب عليها الدهر وانزلها في الحضيض والسفال ،
 فعادت اطلالاً بالية ورسوماً دارسة وخيراً صامته ، تحدث الورى بعظمة الجدود
 وتناجي النفوس بقدرة الخالق في الوجود والكائنات
 عندها تقف الالوف طويلاً بين منزه يلهو بالمادة ، ومفكر يدرس في كتاب
 الوجود ، ومعتبر يتأمل بمصير الامور ، ومهندس يشتغل بالمقادير والاشكال ،
 وراي محقق يستنطق الاثار ليسجلها ذكرى وعبرة الآتين والكل لا يجسر ان
 يلفظ كلمته الاخيرة في واضع اساسها ورافع ابراجها
 على ممرها اللاحب جرت الغزاة غازياً اثر غازٍ ، وتدفت الاجناد فيلقاً
 تلو فيلق ، متسابقين متزاحمين متدافعين بين مشبك القنا وعلى صليل السيوف ،
 وتحت مثار العشير ، وعلى هتاف الظفر ونحيط الذعر والاندهار الى . . . مجد
 النصر ومجد الفتح . الى . . . هوة الابدية ولهوات الدم
 فوق حصونها الهائلة كم بكت من مقل وم سالت من دماء ، وم تحمقت من

آمال وكم خابت من اماني ، وكم انحطت من عروش وكم انعقدت من تيجان ،
 وكم استرسلت من نفوس الى الحياة . . . الى الخلود . حتى انهزم الوهم مطاردًا
 امام الحقيقة كما ينهزم الظلام امام الصبح وتطارَدُ الذرات امام الرياح الزعازع
 في ثنايا بقاياها الرميمة تحثي معلولات الدهور من بابل الى آشور الى مصر .
 ومن مكدونية الى رومية الى بوزنطية . ومن العرب الى الجراكسة الى الاتراك .
 من قرون الظلمة الى اعصر النور ، وحبُّ السؤدد وحب الانانية دافع الى تنازع
 البقاء . الى تنازع الاثرة . والدنيا ملأى بالتناقض والشر والباطل

على ابوابها وحناياها نقشت الاجيال اسطراً من مثل المؤيد والمظفر والمجاهد
 والمرابط والعالى المولوي والاميري الشمسي وسيد الملوك وغيث الدنيا والدين
 ومحبي العدل في العالمين ، الى الفاظ اخرى الهوا بها المادة وعبدوا اميالها وقدسوا
 فظائنها فحرقوا لها بنحور الضمائر والشواعر فيا للفرور ويا للجهالة . . !

من انقاضها التي بعثرتها ايدي الاحداث وجدرانها التي داستها ارجل
 الاجيال وانفاقها المنحنية تحت وطأة السنين صدى يترددُ في فضاءها ويتجاوب
 في انحاءها فيروي تلاطم الالهواء واصطدام المطامع وما جرَّ احتكاكها والتحامها
 على الانسان من الويلات والمصائب . . .

هنا معقلُ شادته ايدِ طامعة في الخلود ، وهنا هيكل تمبنت فيه نفوس فطرت
 على التدين ، وهنا عقول غشى عليها الجهل فما ادركت من صفات الالهية سوى
 العظمة والجلال ، وهنا امارات وقفت على هذه الخرائب وقوف الحياة على شفير
 الموت ، وهنا حلقات من سلسلة الانسان مرت امامها كمرور الايام امام الابد القائم
 عقب الجلبة الصمت العميق ، وتلا الضجة . السكينة البالغة ، فلا يلقها
 الا حفيف اجنحة الطير ولا يزعجها غير وقع ارجل الحشرات ، وفي هذا الليل
 الابدي والجمود المطلق تبدو الحقيقة الازلية جلية من خلال زخارف العصور ،
 وتنجلي الحكمة السرمدية بسنائها المتألق الباهر من طبقات الاجيال المتلاشية
 لفته الى هذه الآثار ، ووقفه على هذه الاطلال ، وتأمل معي ببقية عادية

طرقها بوائق الدهور . فعندها تتضال الطبيعة دون العلة الاولى القادرة ، ومن ورائها تبرز المبادئ السامية بروز الغزالة وهي توأسي البشرية المثألة وتعزبها في بهرة ارتماضها وتعاستها وتمزق عن ابصارها الحجب الكثيفة المنسدلة على غايتها الاخيرة فهي الآن كالجبار المسجى با كفانه البيضاء ، او كالمستغرق في منامه المسرور باحلامه ، فلن تنيقظ من رقدتها الابدية . وقد كانت كالحارس الموكل اليه الامن والمناضل عن الملك والقطين . فباتت كالخطيب المنذر بالقضاء النبي عن المنقلب والزوال ، فيعرف منه الحي العاقل حقارة البقاء ويتحقق كاذب الآمال ومنها صوت الطبيعة يرن في اودية القلوب بما يحققة الاختبار ان المركب الى انحلال وان الحيوة كالظل والخبر السائر ، او كالسفينة الجارية على الماء المتعوج التي بعد مرورها لا تجد اثرها ولا خط حيزومها في الامواج ، او كالطائر يطير في الجو فلا يبقى دليل على مسيره ، يضرب الريح الخفيفة بقوادمه ، ويشق الهواء بشدة سرعته ورفرفة جناحيه ثم لا تجد لمروره من علامة ، او كسهم يُرمى الى الهدف فيخرق به الهواء ولوقته يعود الى حاله حتى لا تعرف ممر السهم (سفر الحكمة ٥ : ٩) وقد خطت فوقها يد الاجيال باحرف من نور (هو الحي الباقي)



من البائن المعروف ان القلعة الموصوفة قد كانت في طرف حلب ينحدر من جنوبها سور يحيط بالمدينة وينتهي طرفه الى جانب القلعة الشمالي وهذا السور كان يعرف بالرومي لبناء الروم له ويشتمل على ١٢٨ برجاً ضخماً بقي بعض ابرجة منها الى اواخر القرن الماضي . فأمر جميل باشا المشهور بهدمها فهدمت عن آخرها والقلعة الآن في أواسط المدينة وهي قائمة على ربوة صناعية ركنها الايدي ، وشادت فوقها القلعة على شكل هرمي او هيئة اهليلجية يبلغ قطرها ٥٠ متراً ومحيط قاعدتها ٤٠٠ متر وتعلو عن سطوح المنازل المحاذية لها ٦٠ متراً وعن سطح البحر ٥٠٠ متر وفي اعلى القلعة منارة مسجدتها الجامع ترتفع عن سطحها ٤٠ متراً وجوانب القلعة مسفوحة رصفها الملك الظاهر بالحجارة الهرقلية المنحوتة والآن

قد استولى الخراب على أكثرها . ومن حولها خندق واسع منقور في الصخر الأبيض يفصل القاعة عن الابنية المجاورة لها ويُعمر عند الحاجة بالمياه فيتعذر على الجيش المحاصر اجتيازه . وفي قمتها سور يحيط بها كأنه الأكليل يعصب هامها قامت فوقه بروج ومرامٍ كان الجنود يرمون منها العدو المهاجم بأصناف القذائف والسهام وهذا السور قد تهدم فلم يبق منه إلا القليل قائماً يني عن عظم شأنه وضخامة بنيانه وعلى جانبي القاعة الجنوبي والشمالي برجان هائلان مربعاً الشكل شادهما

الأمير سيف الدين چم ولما خربا جدد بنيانهما الملك الأشرف قانصوه الغوري في سنة ٩١٤ - ٩١٥ هـ وهما الآن أصلح حالاً من سائر ابنية القلعة التي استولى عليها الخراب والدمار الى حد التعطيل الفاحش والتشويه الشنيع ولا يصعد الى هذه القاعة الا من جهتها الجنوبية ومدخلها متقن الصنعة عجيب البنيان يجتازه الداخل على جسر ممتد الى المدينة يستند على ست حنايا ضخمة مرتفعة . وعلى باب المدخل برجان على جانب من المناعة والضخامة وعليهما نقوش بديعة تزينهما وعلى طولها كتابة عربية من الخط النسخي المملوكي ، تبهر النظر وتستلفت الخواطر ، يُستفاد منها ان السلطان خليل بن قلاوون أمر بعمارة هذا المدخل بعد اهماله واشرافه على الدثور في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م)

ولهذا المدخل عدة ابواب يتخللها دركاوات آزاج معقودة^(١) وحنايا منضودة ، وكان لكل باب اسفلار^(٢) وتقيب واما كن لجلس الجند وارباب الدولة ، وعلى هذه الابواب نقوش وكتابات عديدة جميلة تخلب الالباب ومن حولها شرفات ومرامٍ لاآلات الحرب وادوات الكفاح تزيد هذا المدخل العجيب رونقاً وجمالاً واذا تجاوز الداخل باب المدخل صاعداً الى القلعة وماراً بالابواب والدركاوات الواسعة المعابر كثيرة الزوايا المستقيمة ، ينتهي الى الباب الاوسط فيرى على طرفيه شعبانين طويلين يلتقان على بعضهما وفي اعلاه كتابة جميلة مألها ان الملك الظاهر

(١) الدركاوات مفردتها دركاه وهو القصر وآزاج جمع ازج وهو بيت بيني طولاً . وكلاماً اعجمي (٢) تعريبه متولي الامر او متولي الحجر

غياث الدين غازي هو الذي حصن القلعة وشاد على مدخلها البرجين السابق ذكرهما وجعل له ثلاثة ابواب من حديد . ولما ينتهي الداخل الى الباب الاخير يرى على جانبيه اسدين عظيمين ناتئين ، والى الجانب الايمن مزار يُعزى الى الخضر وكان ينسب للخليل (ابراهيم) يقصده بعض المسلمين ، بالندور والهدايا

ومتى بلغ الداخل قمة القلعة يبدو له صحنها مركوماً بالاتربة والحجارة الضخمة ويرى ابرجة متهدمة وحنايا متشعبة وشرفات متداعية ، اخى عليها الدهر فدرست محاسنها وتعطلت زخارفها . وفي اواسط قمتها باب الجامع وعليه انواع الوشي والنقوش العربية . وعلى جانبها الجنوبي دار العزاو دار الشخصوس لكثرة ما كان فيها من التماثيل والزخارف وفي صحنها ركام من القنابر القديمة ومنها يُدخل الى نادٍ للملك الظاهر طوله الشمالي ٢٥ متراً في عرض ٧ امتار وطوله الجنوبي ٢٥ متراً في عرض ١٥ متراً ، وفي صدره نافذة كبيرة مستطيلة مربعة تطل على المدخل والمدينة واطارها وتطاريفها الخارجية دقيقة الصنعة محكمة النقوش يروق العين منظرها

وفي اواسط قمة القلعة منحدر مسدود الآن كان يُنزل منه الى انفاقها السفلية حيث كنيسة النصرى باقٍ بعض رسوماً مائة من مثل حنية الكاتدرا واعمدة وحنايا اخرى . والى جانبها الغربي مخازن حديثة البناء تحوي اصناف الذخائر والادوات الحربية والى جانبها بئر الماء المعروفة بالساتورة كان ينحدر اليها ١٢٥ درجة وعمقها الآن ٤٧ متراً . وذلك كله لا يناسب المدخل في شيء من حسنه ونقوشه وتصاويره وكتاباته المختلفة

ومن قمة القلعة تنكشف لك المدينة مركومة بعضها فوق بعض ومن اعلى منارتها ينبسط نظرك الى مدى بعيد تجمد منه منظرٌ بديعاً فاتناً يترك في النفس أثراً من السرور والانبساط وترى ما يكتنف حلب من الفياض والرياض الخضراء والسهول الخصيبة الواسعة وما يحيط بها من الربى والتلال احاطة الهالة بالقمر او السوار بالمعصم كأنها الحصون والمعقل تحصنها وترد عنها الغارات العشواء

ذهب غالب مؤرخي العرب الى ان اول من بنى القلعة سلوقوس الاول الملقب
بنيقاتور احد قواد الاسكندر الذي ملك على سوريا سنة ٣٠١ قبل المسيح .
وارتأى اهل التحقيق ان بناتها الحثيون الذين استولوا على سوريا الشمالية في القرن
السابع عشر (ق م) واستندوا الى ما خلفه هذا الشعب القوي من الكتابات
والتماثيل والرسوم العديدة في هذه النواحي ، واستدلوا فيما استدلوا عليه بما بين هذه
القلعة وبين قلاع حمص وحماه وحارم من التشابه العظيم
والحق يقال ان سلوقوس اصلاح القلعة فقط ، لما رمم بحلب بعض الترميمات ،
وبنى فيها ابنية جديدة واطلق عليها اسم بيريا او باروا . ولما فتحها كسرى
انوشروان وشاد سورها بنى في القلعة مواضع

وعندما فتح ابن عبيدة حلب كانت قلعتها مرممة الاسوار بسبب زلزلة لصابتها
قبل الفتح فاخربت اسوار البلد وقلعتها ولم يكن ترميمها محكماً فنقض بعضه وبناه .
وعنى بها بنو امية وبنو العباس فتركوا فيها آثاراً ولما هاجم نيقفور ملك الروم حلب
سنة ٣٥١ هـ امتنعت القلعة عليه وكان قد اعتصم بها جماعة من العلويين والهاشميين
فجتمهم ، ولم يكن لها يومئذ سور عامر فكانوا يتقون سهام الروم بالاكف والبرادع
ولما تولاه الامراء الحمدانيون بنى بها سيف الدولة وابنه سعد الدولة مواضع
وكذلك شاد بها بنو دمرdash دوراً وجددوا اسوارها وكذلك غني عماد الدين
آق سنقر وولده عماد الدين زنكي بتحسينها وكذلك بنى بها طغتكين برجاً من
جنوبها ومخزناً للدخائر وكذلك شاد فيها نور الدين زنكي ابنية كثيرة

ولما ملكها الملك العادل سيف الدين الايوبي بنى بها برجاً وداراً لولده فلك
الدين . ولما ملكها الملك الظاهر غياث الدين غازي حصنها وبنى فيها مصنفاً للماء
ومخازن للغلات وسفح تلها وورصفه بالحجر الهرقلي واعلى بابها وجعل له جسراً ممتداً
منه الى البلد ، وجعل للقلعة ثلاثة ابواب من حديد وبنى فيها داراً عرفت بدار
العز قامت على دار للملك نور الدين زنكي كانت تسمى دار الذهب ولما احترقت
سنة ٦٠٩ هـ جدد بنائها وسماها دار الشخصوس لكثرة ما كان من زخارفها

وفي سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) تهدم منها عشرة ابراج مع بدنياتها فاهتم الاتابك شهاب الدين طغرل بك بعمارته من اسفل الخندق الى قمتها . وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) هاجمها التتر وهدموا اسوارها واستلبوا ما كان بها من الذخائر والمجانيق . وفي سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) اعادوا الكرة اليها فاخر بوها خراباً شنيعاً ، واحرقوا المقامين فيها حتى لم يبق فيها من مكان للسكنى كما قال ابن الخطيب واستمرت القلعة خراباً الى ان جدد عمارتها الملك الاشرف خليل بن قلاوون على ما سبق ذكره وذلك في سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ولما فتح نمرلك حلب في سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) استباح القلعة نهياً وحرقاً فاستمرت ايضاً خراباً الى ان جاء الامير سيف الدين چمك نائباً اليها من قبل السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) فامر بيناتها والزم الناس بالعمل فيها حتى عمل بنفسه واستعمل وجوه الناس ، بحيث كان الامراء يحملون الاحجار على متونهم . وبنى البرجين اللذين على باب القلعة وبنى على سطحهما القصر المائل الآن وذلك سنة ٨٠٩ هـ وبنى البرجين اللذين في سفح القلعة من جنوبيها وشمالها (وقد سبق وصفهما)

ولما تمرد علي باشا جان بولاد على الدولة العلية سار مراد باشا لقتاله واخضاعه في سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٧ م) وتبع اثاره وحاصر المدينة فافتتحها واقام المنجنيقات على القلعة وراسل رؤساء المحافظين عليها واعدأ ايامهم بمنصب وخلع ، فاغثروا بها وسلوه القلعة ، فقتلهم عن آخرهم وفرَّ جان بولاد الى الاستانة طائماً وقبل سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) لم يكن سورها محكماً ولم يكن مقام الملوك بها فاهتم بعد ذلك من تولاهم من الملوك والامراء بعمارته وتحصينها وعصي فيها فتح القامي على مولاه مرتضى الدولة لؤلؤ ثم سلمها الى نواب حلب ، فعصي فيها ايضاً عزيز الدولة فاتك على الحاكم الى ان قتل بها فصار الملك الظاهر وولده المستنصر يوابان والياً بالقلعة وآخر بالمدينة خوفاً من ان يجري ما جرى من عزيز الدولة . فلما ملك بنو مرداش حلب سكنوا في القلعة وجرى مجراهم من جاء بعدهم من الملوك والامراء

ووصفها رهط من اهل الرحل والجغرافية من مثل ابن حوقل الذي اشهر سنة

٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) فقال انها « غير طائفة ولا حسنة العمار ، وشمس الدين المقدسي نحو سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) فذكر منها « سعتها ومانعتها وما فيها من خزائن السلطان » وابن الطيب السرخسي في رحلته سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) فذكر « سورها وبئرها التي ينزل اليها في ١٣٠ مرقة ودير النصارى فيها » وابن بطلان البغدادي في سفرته سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) فذكر منها « مسجدتها وكنيستها » الى غير هؤلاء ممن اجمعوا فيها على ما قاله الرحالة ابن جبير والمسفار ابن بطوطة من امتناعها وارتفاعها ومطاولتها الايام والاعوام ، وقد قال فيها الخالدي شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من برومها بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجرُّ عليها الجوّ جيب غمامةٍ ويلبسها عقداً بانجمه الشهب
اذا ما سرى برقٌ بدت من خلالهٍ كالأحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنودٍ قد اماتت بغصةٍ وذى سطوات قد ابانت على عقب

روى ييشوف الجرمانى في تاريخه عن احد حاخامى اليهود قال : انه رأى في القلعة كتابة عبرية مفادها (انا يواب بن سرويا اخذت هذه القلعة) . . ويواب هذا تولى قيادة جيوش داود في سنة ١٠٥٥ ق م فاذا صحت هذه الرواية كانت هذه الكتابة اكثر قدمية من سائر كتابات القلعة ، ورجحت ما قاله المحققون من انها من بنايات الحثيين . واما الكتابات الباقية فهي عربية لا تعدى القرن السابع للهجرة وقد كان يتولى حراسة القلعة نفر من الشعب ويعرفون حتى الآن بيت القلعجي الى ان انقرضت وجاقات الانجكارية وانتظمت احوال العسكرية ، فتوات المحافظة عليها الى ان عاد امرها في هذه السنة الى رجال الملكية . وقد تعاقبت عليها الرجوف وزلازل مرات عديدة يطول ابرادها وآخرها في سنة ١٨٢٢ وسنة ١٨٧٢ ، قشعت اسوارها وتهدمت ابراجها ، واصبحت اخرية دارسة واطلالاً بالية . وقد اهل امرها من عهد بعيد فعادت الى ما تشاهد عليه الآن مما سبق وصفه في هذه المقالة فسبحان من بيده تصريف الامور واليه المصير

القس جرجس منش